

## نظريّة العلم في القرآن.. ومدخل جديد للتفصير



﴿مَرَاجِعَةٌ فِي كِتَابٍ (نظريّةُ الْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ)، غَالِبٌ حَسَنٌ، قَمٌ، سَلْسَلَةُ كِتَابٍ قَضَا يَا إِسْلَامِيَّةِ مُعاصرَةٌ، قَمٌ، 1419هـ - 1999م﴾ جاءَ رَجُلٌ مِّن الْأَنْصَارِ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا حَضَرْتَ جَنَازَةً أَوْ حَضَرْتَ مَجْلِسًا عَالَمًا، أَيّْهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَشْهُدَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): إِذَا كَانَ لِجَنَازَةِ مَنْ يَتَبعُهَا وَيَدْفُنُهَا، فَإِنَّ حَضُورَ مَجْلِسِ الْعَالَمِ أَفْضَلُ مِنْ حَضُورِ أَلْفِ جَنَازَةٍ، وَمِنْ عِيَادَةِ أَلْفِ مَرِيضٍ، وَمِنْ قِيَامِ أَلْفِ لَيْلَةٍ، وَمِنْ صِيَامِ أَلْفِ يَوْمٍ، وَمِنْ أَلْفِ دَرْهَمٍ يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَى الْمَسَاكِينِ، وَمِنْ أَلْفِ حَجَةٍ سُوَى الْفَرِيقَةِ، وَمِنْ أَلْفِ غَزْوَةٍ سُوَى الْوَاجِبِ تَغْزُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَا لَكَ وَنَفْسِكَ. وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ الْمَسَاهِدُ مِنْ مَشَدِّدِ الْعَالَمِ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ يَطَّاعُ بِالْعِلْمِ، وَيَعْبُدُ بِالْعِلْمِ، وَخَيْرُ الدِّنِيَا وَالآخِرَةِ مَعَ الْعِلْمِ، وَشَرُّ الدِّنِيَا وَالآخِرَةِ مَعَ الْجَهَلِ﴾ [1]. لقد تمحور هدف النبوة الخاتمة حول تحرير العقل البشري من الخرافية والجهل والإرتقاء بوعي الإنسان وتطهيره من براهن الجاهلية، ولهذا احتل الحث على استخدام العقل، والدعوة إلى التفكير، والتدبر، والنظر مساحة واسعة من القرآن، فوردت مشتقات العقل في تسع وأربعين آية، جاءت كلّها بالصيغة الفعلية، من قبيل: يعقلون، تعقلون، تعقل، يعقلها، عقلوه. بينما لم تأت كلمة العقل بالصيغة الإسمية في الكتاب الكريم، وإن وردت مرادفات لها ومقارباتها بهذه الصيغة، مثل: اللب، العلم، الحجى، النهى، الفؤاد، القلب، مضاهاً إلى أنَّ القرآن يشتمل ما يزيد على ثلاثة آيات تتضمّن دعوة الناس إلى التفكُّر والتدبُّر أو التعلُّم أو التدليل على إثبات الحق وإبطال الباطل. ولم يأمر اللَّه تعالى عباده في كتابه أن يؤمنوا

بشيء من دون بصيرة وتدبر، حتى أذّه ذكر الكثير من الأحكام في سياق التعليل. ويوجي تلبس العقل في تمام الموارد التي جاء فيها من القرآن بالصيغة الفعلية بتوجيه الإنسان نحو أعمال العقل وتوظيفه في الحقل الذي أنيط به، وهو المواظبة على التفكير، والتدبر، والتبيّن، والنظر، والتذكرة، والتفقد، وهذه بمجموعها مشاغل تتطلّب فعالية دوّبة متوازنة للعقل بنحو متواصل. كذلك اهتم القرآن إهتماماً بالغاً بتأكيد النظر العقلي، وحثّ على تحصيل العلم والمعرفة، وتجلى ذلك الإهتمام بوضوح في تكرار مادة العلم ومشتقاته في الآيات الكريمة بما يزيد على تسعين مرتّة، إذ استهلّ الوفي خطابه للرسول (ص) بالأمر (إقرأ باسم ربّك الذي خلق)، وأردف هذا الأمر بأمر آخر بالقراءة (إقرأ وربّك الأكرم) (العلق/ ١). ويبدو أنّ الأمر الثاني بالقراءة ليس توكيداً محضاً للأمر الأول، وإنّما طلبت من الرسول قراءتان: قراءة تأتي عبر التعلق بقدرة الله المطلقة في الحركة الكونية، ودون كيفية محددة، تتجلى في الإتجاه بالعلقة إلى مرحلة الإنسان، كما تتجلى في الإتجاه بالحياة إلى الموت وبالموت إلى الحياة. وهي قراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية وصفاتها وخلقها للظواهر ذات المعنى، وتحديد هدف حق للخلق. قراءة خالصة لقدرة الله في كتاب كوني مفتوح. هنا تأتي القراءة بإسمه المقدّس، أي قراءة باسمه بوصفه خالقاً والخلق صفة يتفرّد بها الله. وقراءة ثانية ليست هي بإسمه ولكن (بمعيته) لذلك لم تأت الآية في الشطر الثاني على نحو المقدمة، فلم يقل (واقرأ باسم ربّك الأكرم) ولكن (اقرأ وربّك الأكرم) فجعل العطف على الربوبية وأعطى الأمر الثاني (اقرأ) إنجاحاً مستقلاً، والأمر واضح بالنسبة إلى حركة الواو في القراءة الثانية، فدليل المعية هنا في (وربّك) ثم يتخذ الله في القراءة الثانية صفة دالة على نوعية القراءة المطلوبة، وهي قراءة متعلقة بصفة كون الله كريماً فيما خلق، أي إنّها قراءة في عالم الصفات التي تتجلى في الخلق، وعالم الصفات عالم موضوعي، ولذلك جاءت القراءة هنا عبر علم متعلق بالقلم، والقلم بالنسبة للإنسان وسيط خارجي لمعرفة موضوعية وليس ذاتية<sup>[٢]</sup>. من هنا تجيء تثنية الأمر بالقراءة لتأثرها للحظة جديدة تمثل منعطفاً في تطور وتكامل المعرفة البشرية، وتأخذ بدخول الإنسان في عهد جديد، تندمج فيه قراءتان وتتوحدان بإتساق، وتغدو كل واحدة منهما وجهاً للقراءة الأخرى، تدل عليها وتقود إليها. وبموازاة ذلك، نبه القرآن إلى منزلقات العقل وآفاته، فشدد على ذمّ التقليد الأعمى وإتباع الآباء، والإسلام لميراثهم، من دون تمحيص وغريبة. وهكذا حذر من الاعتماد على الطعن، وصرّح بأنّ الطعن لا يغني من الحق شيئاً، وإنّ المعرفة الحقة لا بدّ أن تستند إلى اليقين، واتّخذ القرآن موقفاً لا لبس فيه حيال إتباع الهوى فشدد على أنّ الهوى يقود للتيه والضلالة، ويحجب الفؤاد عن معاينة الحق، ويحول بين العقل وبلوغ الحقيقة. وعمد القرآن إلى استخدام الاستدلال على ما أورده من

عقائد وأحكام، ولم يطالب بالتمذيق بلا برهان (قل ها توا ببرهانكم) (النمل/ 64)، واستعانت أساليب الإستدلال فيه بما هو محسوس في هذا الكون والقensem، فاكتست بمشاهد واقعية، منبثقة من حياة الإنسان وما يكتنفها من تداعيات ومشاكل. فقد تحدّث الأمثال القرآنية عن الواقع المحسوس، وحكت القصص تجارب تاريخية عاصرتها الأمم الماضية، وأشارت آيات عديدة إلى الأرض وظواهرها المتنوعة، والكون وما يزخر به من أجرام تضيّطها مجموعة قوانين صارمة لا تخلاًـف ولا تختلف.

- نظرية العلم في القرآن تناول المفسّرون مسألة العلم والمعرفة في القرآن من سياق تفسيرهم لآيات التي تحدّث عن هذه المسألة وما يتصل بها، كما عالج قضية العلم والإدراك في القرآن الحكماـء والعرفـاء والمتصوـرة والمتكلــمون، وذهب كل منهم في بيان هذه القضية مذاهب شتى، اصطباغت بمنظوراتهم وموافقهم القبلية، فعبدـرت في الغالب عن آرائهم أكثر من تعبيرها عن رأي القرآن، وطلت قضية العلم والمعرفة والإدراك في القرآن تفتقر إلى صياغة موضوعية تستلهم الوحي وتهندي بنور القرآن، صياغة تتحرر من إسقاطات وحملة رؤى الفلسفـة والمفاهيم الوضـعية الحديثـة، ما خلا بعض الدراسـات والأبحاث المعاصرة أو الإشارات المتفرقة في تراث التفسـير. وتجيء محاولة الباحـث الأـستاذ غالـب حـسن في هذا الكتاب كمسـاحة متمـيزة تعالـج هذه القضية من منظور مختلف، يـتـخذ من آيات القرآن مرجعـية وحـيدة، ولا يـتجاوزـها إلى ما يـؤـدـي إلى تـشوـه الرؤـية من أفـكار وـمفـاهـيم بعيدـة عن معـين السـماء. غالـب حـسن باـحـث متـمرـس في الـدرـاسـات القرـآنـية، صـدر له قبل ما يـناـهزـ ثـلـاثـينـ عـاماـ كتاب (الـوـجـودـ فـيـ الـقـرـآنـ) وـهوـ مـحاـولـةـ مـبـكـرـةـ لـإـسـتـخـالـمـ التـصـوـرـ القرـآنـيـ لـلـكـونـ وـالـإـنـسـانـ

والـحـيـاةـ، وأـرـدـفـ تـلـكـ الـمـحاـولـةـ بـمـجمـوعـةـ درـاسـاتـ تـؤـسـسـ لـمـداـخـلـ جـديـدةـ فيـ التـفـسـيرـ. أمـاـ فيـ

كتـابـهـ المـائـلـ بـيـنـ أـيـديـنـاـ، فـيـتـنـاـولـ فـيـ الفـصـلـ الـأـوـلـ قضـيـةـ الـعـلـمـ وـالـمـعـرـفـةـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ، وـيـلـحـقـهاـ فـيـ الفـصـلـ الثـانـيـ بـمـدخلـ جـديـدـ لـلـتـفـسـيرـ اـصـطـلـحـ عـلـيـهـ بـالـتـفـسـيرـ الـمـعـادـلـاتـيـ.

وـبـالـنـسـبةـ لـمـسـأـلةـ الـعـلـمـ وـالـمـعـرـفـةـ، يـسـتـنـطـقـ النـصـ القرـآنـيـ وـيـتـقـصـ دـلـالـاتـهـ بـشـأنـ هـذـهـ الـمـسـأـلةـ بـغـيـةـ اـكـتـشـافـ نـظـرـيـةـ تـرـتـسـمـ فـيـهاـ سـائـرـ أـبعـادـ الـمـوقـفـ القرـآنـيـ إـزـاءـ الـعـلـمـ وـالـمـعـرـفـةـ. يـسـتـخلـصـ

الـبـاحـثـ أـبـرـزـ طـرـقـ الـمـعـرـفـةـ فـيـ الـقـرـآنـ، اـبـتـداءـ بـالـسـمـعـ وـالـبـصـرـ، ثـمـ التـفـكـرـ، وـالـرـؤـيـةـ، وـالـتـعـقـيـلـ، وـالـنـظـرـ، وـالـتـبـصـرـ، مـؤـكـداـ انـ كلـ طـرـيقـ مـعـرـفـيـ فـيـ تـلـكـ الـطـرـقـ يـفـضـيـ إـلـىـ مـطـاـبـقـ

فـيـ قـوـةـ تـهـ وـشـدـ تـهـ، وـمـسـتـوـاهـ، مـعـ عـمـقـ الـطـرـيقـ، وـدـقـتـهـ، وـسـعـتـهـ، وـمـدـىـ صـلـاحـيـتـهـ فـيـ اـسـتـحـصالـ

الـمـعـرـفـةـ وـالـعـلـمـ. وـمـاـ لـارـيبـ فـيـهـ انـ التـفـكـرـ، وـالـتـعـقـيـلـ، وـالـتـبـصـرـ، وـالـنـظـرـ، وـالـرـؤـيـةـ،

تعـنيـ أنـ الإـنـسـانـ مـزـوـدـ بـجـهاـزـ مـفـكـرـ، وـهـذـاـ الجـهاـزـ هـوـ العـقـلـ. وـالـعـقـلـ فـيـ الـقـرـآنـ قـوـةـ

درـاكـةـ يـمـكـنـهاـ أـنـ تـجـولـ فـيـ طـوـاهـرـ الـحـيـاةـ، وـالـتـارـيخـ، وـالـمـجـتمـعـ، وـالـكـونـ. إنـ العـقـلـ فـيـ

الـقـرـآنـ يـتـجاـوزـ الـطـوـاهـرـ الـجـاهـزـةـ مـنـ الـمـعـرـفـةـ، مـنـ أـجـلـ مـعـرـفـةـ السـبـبـ وـالـغـاـيـةـ. وـمـاـ يـنـبـغـيـ

الـإـشـارةـ إـلـيـهـ انـ آـيـاتـ الـتـيـ تـنـتـهيـ بـ(يـعـقـلـونـ، يـتـفـكـرـونـ، يـبـصـرـونـ، يـتـذـكـرـونـ...)ـ أـوـ الـتـيـ

تستهل بالنظر والرؤبة، إنّما تدعو إلى إستعمال العقل في وعي أسرار الظواهر، وليس المسألة هي مجرد تأمّل وصفي ساذج، بل هي غور في عمق الأشياء، واستكناه البنية الأساسية للحقائق. وفي السياق ذاته، يستقر المؤلف مستويات المعرفة في القرآن، فيستهلها بالدراية - الإدراك والفهم - الفقه، والحس - الشعور والبصيرة - الرؤبة، واليقين، وأخيراً الطن. ويحدد العلاقة التفاعلية العضوية بين هذه المستويات، وأنحاء الإرتباط بين كل واحد منها والآخر، وكيف يرتقي وصف القرآن لجماعة من الناس، فيُسمّـ لهم: (أولوا الألباب، وأولوا الأ بصار)، ممّـن يتميّـ زون بمستوى رفيع من الوعي والبصيرة. بعد ذلك، يتابع المؤلف بالدراسة والتحليل ما يرتبط بالعلم، والبرهان، والبيان في القرآن، ويستخلص النسيج الموحد الذي تشير إليه الآيات، وما يرقد وراء مداليلها التفصيلية من مدلائل مشتركة تشي ببناء منظم منبث في الآيات كلّـها. ثمّـ ينتقل الكاتب إلى الفصل الثاني، فيرسم لنا ركيز منهج (التفسير المعادلاتي)، وهو منهج في التفسير يهتم بإستكشاف ما يسود القرآن من معادلات كونية، واقتصادية، وأخلاقية، وسياسية. فكثيراً ما يربط القرآن بين عنصريـن على نحو معادلة، لها جذورها، وشروطها، ونتائجها، فضلاً عن طرفيـها. ويلخص الكاتب خمسة معالم لمنهج التفسير المعادلاتي، تبدأ بتشخيص الآية ذات البنية المعادلاتية، تليها عملية اكتشاف ما يعزز ويدعم هذه المعادلة، ويتمثل هذا المعنى بالترابط العضوي بين ضدي طرفيـ المعادلة. فمثلـم هناك ترابط بين طرفيـها، كالترابط والإطراد الإيجابيـ بين الشكر وزيادة النعم مثلاً، فإنّـ هناك ترابطاًـ بين ضدـ لهم الكفران بالنعمة والقطـ. بعد ذلك، يُجرى تعريفاً قرآنيـاً دقيقـاًـ لكلـ موضوعـ منـ موضوعـيـ المعادلةـ، لاـ مكانـ التسلسلـ المنطقيـ الصحيحـ لفهمـ المعادلةـ، كفضـاءـ وبنـاءـ ونتـائـجـ. ولاـ يقفـ التفسـيرـ المعادـلاتـيـ عندـ هـذهـ الخطـوةـ، وإنـماـ يـرـتـقـيـ إـلـىـ مـجاـلـ أـوـسـعـ، فـيـسـعـ لـلـتـعرـفـ عـلـىـ المعـادـلةـ الأـمـ، وـهـيـ المعـادـلةـ التـيـ تـنـدـرـ تـحـتـهاـ معـادـلاتـ متـعـدـدةـ، وـلـاـ تـكـوـنـ هـذـهـ المعـادـلةـ سـوـيـ أحدـ أـفـرـادـهـ. وـفـيـ خـطـوةـ أـخـيـرةـ، يـثـبـتـ جـذـرـ المعـادـلةـ بـإـعـتـبارـهـ وـعـاءـ إـنـبـاعـهـاـ وـتـأـسـيسـهـاـ وـصـيـرـورـتـهـاـ. وـلـاـ يـقـتـصـرـ الـبـحـثـ عـلـىـ تـحـدـيدـ معـالـمـ هـذـاـ المـنـهـجـ التـفـسـيرـيـ وإنـماـ يـتـحـظـاهـ لـلـتـطـبـيقـ عـلـىـ ثـلـاثـ نـمـاذـجـ مـنـتـقـاةـ. فـفـيـ النـمـوذـجـ الـأـوـلـ، يـُطـبـقـ المؤـلفـ التـفـسـيرـ المعـادـلاتـيـ عـلـىـ معـادـلةـ أـخـلـاقـيةـ، لـهـاـ طـرـفـانـ مـشـخـصـانـ بـصـرـاحـةـ هـمـاـ عـلـىـ التـرـتـيبـ:ـ الشـكـرـ وـزـيـادـةـ النـعـمـ (ـلـئـنـ شـكـرـتـمـ لـأـزـيـدـنـكـمـ)ـ (ـإـبرـاهـيمـ/ـ7ـ).ـ وـفـيـ النـمـوذـجـ الـثـانـيـ، يـُطـبـقـ مـعـادـلةـ إـجـتمـاعـيـةـ، لـهـاـ طـرـفـانـ، هـمـاـ:ـ مـصـيرـ النـعـمـ منـ جـهـةـ وـالـمـحتـوىـ الدـاخـلـيـ لـلـإـنـسـانـ منـ جـهـةـ أـخـرىـ (ـذـلـكـ بـأـنـ)ـ إـلـمـ يـكـ مـغـيـرـ نـعـمـةـ أـنـعـمـهـاـ عـلـىـ قـوـمـ حتـىـ يـغـيـرـواـ مـاـ بـأـنـفـهـمـ)ـ (ـالـإـنـفـالـ/ـ5ـ3ـ).ـ أـمـّـاـ النـمـوذـجـ الـثـالـثـ، فـهـوـ تـطـبـيقـ لـمـعـادـلةـ حـضـارـيـةـ، تـعـتـبـرـ مـنـ الـمـعـادـلاتـ الـمـاضـيـةـ الـرـاسـخـةـ فـيـ ذـاتـيـةـ الـفـكـرـ الـإـسـلامـيـ الـمـسـتوـحـىـ مـنـ كـتـابـ إـلـ،ـ تـلـكـ الـعـلـاقـةـ الـضـرـوريـةـ بـيـنـ نـوـعـ الـكـلـمـةـ وـالـوـجـودـ،ـ لـأـنــ الـكـلـمـةـ فـيـ لـغـةـ الـقـرـآنـ وـبـالـتـحلـيلـ

تعني الفعل. فالكلمة الطيبة كفؤ الفعل الخير (كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها) (إبراهيم/ 24). والكلمة الخبيثة كفؤ فعل الشر (كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) (إبراهيم/ 26). ثم يمضي الباحث إلى ما هو أبعد من ذلك ليكتشف الإطار الأوسع أو المعادلة الأعم التي تنضوي تحتها هذه المعادلة، وهي ما يعبّر عنها قوله تعالى: (فَأَمّا الزِّبدُ فَيَذَهِبُ جُفَاءً وَأَمّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) (الرّعد/ 17). وهذه الآية تتحدد عن معادلة كبرى تجد فيها المعادلة السابقة مكمنها المناسب، وحاضنها الحقيقي، وراعيه الصادق. فالكلمة الطيبة باعتبارها فعلاً خيراً، إنّما هو من مصاديق ما ينفع الناس. وأمّا الكلمة الخبيثة، فهي ليست إلا زبداً يذهب جفاء ويضمحل ويتشلاش. -

الكتاب أخيراً لبيان موضوع (ذكر الله في القرآن)، ويلور مدیاته وآفاقه ومصاديقه، وما يتصل به من مفاهيم، وهنا يستأنف تطبيق التفسير المعادلاني، مكتشفاً مرّة أخرى ثلاث معادلات قرآنية في موضوع الذّكر، فيما يغدو هذا البحث متمماً لسابقه، وإن تبدى لنا عنوانه بصورة أخرى. إنّ هذه النظرة الخاطفة لا تغنينا عن مطالعة هذا الكتاب الهام، بالرغم من ضآلة عدد صفحاته، نظراً لما تجلت في ثناياه من إنجتهادات مبدعة في استنطاق الآيات الكريمة، واستكناه مداليلها المشتركة التي قد تغيب عن أثر الإستغرار في المداليل التفصيلية الخاصة بكل آية. نتمذّى على المؤلف أن يعالج مسألة العلماء ومقامهم ووظيفتهم ومسؤوليتهم في القرآن الكريم أيضاً، في سياق معالجته لقضية العلم في القرآن، خاصة وأنّ هناك فهماً خطئاً يسود بين الناس، بل لدى بعض العلماء، يرى أنّ مهمّة العالم لا تكدر تتعذر إماماً الصلاة، وتدبر بعض الطقوس، وتعليم شيء من الأحكام. بخلاف ما يحدّده القرآن من هذه المهمّة، كما ورد عن الإمام محمد الجواد (ع): "العلماء في أنفسهم خانة إن كتموا النصيحة، إن رأوا تائهاً ضالاً لا يهدونه، أو ميتاً لا يحيونه، فبئس ما يصنعون، لأنّ الله تبارك وتعالى أخذ عليهم الميثاق في الكتاب، أن يأمروا بالمعروف وبما أمروا به، وأن ينهاوا عمّا نهوا عنه، وأن يتعاونوا على البر والتفوى، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان"

(الكليني، الكافي، ج 8، ص 54) [3]. الهوا مش:

[1] النيسابوري، روضة الوعاظين، ص 12. [2] حاج محمد، محمد أبو القاسم، العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، الطبعة الثانية، ج 1، ص 456-457.

[3] الكليني، الكافي، ج 8، ص 54.

